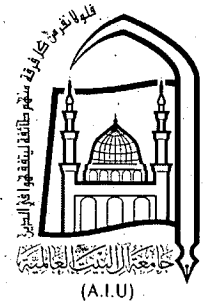

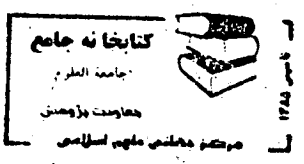

جامعة آل البيت العالمية

رسالة الماجستير

فرع الفقه و المعارف الاسلامية

الموضوع :

المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي

الأستاذ المشرف :

الدكتور عبد الجبار الرفاعي

الأستاذ معاون المشرف :

حجة الإسلام والمسلمين السيد علي الموسوي

إعداد :

محمود نعمة الجياشي

السنة الجامعية ١٣٨٥ـ ١٣٨٦ / ١٤٢٧ـ ١٤٢٨

بسمه تعالى

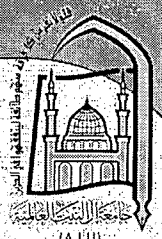

جامعة آل البيت العالمية

الرقم : ٤٦٤٤٢/ص ٥٣

التاريخ : ٢٠٠٧/٠٢/٢٥م

إدارة الدراسات العليا

كتابخانه جامع مركز جهانى علوم اسلامى
شماره ثبت: ١١٦٨
تاريخ ثبت:

تم بحمد الله مناقشة رسالة التخرّج لمرحلة الماجستير في كلية الفقه والمعارف الإسلامية (قسم الفقه والأصول) بجامعة آل البيت عليهم السلام العالمية للطالب **محمود نعمة الجياشي** / العراق / بتاريخ ١٧ / ٠١ / ٢٠٠٧ م الموافق ٢٧ ذي الحجّة ١٤٢٧ هـ.ق بعنوان **المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي** قدس سره

وتحت إشراف لجنة المناقشة، كلّ من أصحاب السماحة:

- حجة الاسلام والمسلمين الدكتور الشيخ محمود العيداني (حفظه الله)
- الدكتور عبد الجبار الرفاعي (حفظه الله)
- حجة الاسلام والمسلمين السيد علي الموسوي (حفظه الله)

وقد حازت هذه الرسالة على رتبة ممتاز بمعدل (١٩/٥) تسعة عشر ونصف.

السيد عباس الهاشمي

مدير إدارة الدراسات العليا

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة ١

عملنا في هذه الرسالة ١٢

نبذة من حياة العلامة الطباطبائي ١٣

أسمه وولادته ١٣

دراسته ١٣

نشاطه العلمي في قم ١٥

تمهيد ٢٠

المجتمع الديني والمجتمع المدني ٢٠

المباني النظرية للمجتمع المدني ٢١

١. الفردية ٢١

٢. النفعية ٢٣

٣. العلمانية ٢٤

٤. العقلانية ٢٥

٥. التعددية والشكّاكية الأخلاقية ٢٥

٦. المناهضة للأيديولوجية ٢٦

المجتمع الديني ٢٦

تعريف المجتمع الديني ٢٦

مباني المجتمع الديني ٢٧

١. النظرة الوجودية للإنسان ٢٨

٢. نفي الفردية ٢٩

٣. نفي العلمانية ٢٩
٤. شمولية القانون الشرعي ٣٠
٥. الدين والأيديولوجيا ٣٠
٦. نفي العقلانية الأداتية ٣١

الفصل الأول: مقتضيات الفطرة الإنسانية ٣٢

١. الطبيعة الإنسانية تقتضي الإجتماع بالإلهام الإلهي ٣٥
التوجه العبادي إلى الله في عالم المادة ٣٦
٢. معنىٰ كون الإنسان فطرياً ٣٧
٣. سبب تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني ٤٢
وبيان كيفية ثبات قوانين الإجتماع التي يتبنّاها الدين ٤٢
أولاً: بدء تكوين الإنسان ٤٤
ثانياً: تركّب الإنسان من روح وبدن ٤٥
ثالثاً: شعوره الحقيقي وارتباطه بالأشياء ٤٥
رابعاً: علومه العملية ٤٦
خامساً: جَريهُ علىٰ استخدام غيره انتفاعاً ٤٨
سادساً: كونه مَدنياً بالطبع ٤٨
سابعاً: حدوث الإختلاف بين أفراد الإنسان ٤٩
ثامناً: رفع الاختلاف بالدين ٥١
تاسعاً: الاختلاف في نفس الدين ٥٣
عاشراً: الانسان بعد الدنيا ٥٤
أحد عشر: علماء الاجتماع وكيفية ثبات القوانين الاجتماعية ٦٠
٤. الإنسان محتاج إلىٰ التكليف ما دام في النشأة الدنيوية ٦٢
٥. ظاهرة النبوة العامة في الحياة البشرية ٦٤
البعد الفلسفي في ظاهرة النبوة ٦٥

توضيح ذلك ٦٦
ضرورة ظاهرة النبوة العامة ٦٦
مناقشة نظرية تبعية المحيط ٦٧
النبوة ليست نبوغاً فكرياً ٧٠
الشعور الباطني المسمىٰ وحياً أمر خارق للعادة ٧١
٦. احتياج القوانين الإجتماعية الدينية إلىٰ أحكام المجازاة ٧٥
الشفاعة لا تهدم قوانين الجزاء والعقاب ٧٧
٧. الدفاع عن حقوق الإنسان حقّ فطري مشروع ٧٩
مباح الإستيفاء للإنسان ٧٩
٨. قانون تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي أو بقاء الأمثل ٨٢
أما المقام الأول ٨٢
المسألة من الناحية الفلسفية ٨٤
الفصل الثاني: أخلاق المجتمع الديني ٨٨
١. مسالك تهذيب الأخلاق ٩٠
المسلك القرآني الخاص في تهذيب الأخلاق ٩٤
٢. أصول الأخلاق الفاضلة ٩٧
٣. مناقشة نظرية اختلاف الأخلاق باختلاف المجتمعات المدنية ١٠١
٤. الأخلاق الكريمة والقانون والتوحيد ١٠٩
٥. بحث فلسفي في معنىٰ «الحبّ» ١١٣
٦. في معنىٰ الأدب الالهي ١١٦
٧. في معنىٰ التحيّة من الناحية الاجتماعية ١٢١
٨. في عاقبة الكذب وأنه لا يفلح ١٢٣
الفصل الثالث: التفكير في المجتمع الديني ١٢٥
١. في معنىٰ الاحساس والتفكير ١٢٧

٢. الخرافات علىٰ ضوء العقائد الحقّة ١٣٥
التي يهدي إليها التفكير الصحيح ١٣٥
٣. طريق التفكّر الذي يهدي إليه القرآن ١٣٩
الرد علىٰ الشبهات المثارة علىٰ طريقة التفكير المنطقي ١٤٢

الفصل الرابع: الأسس العامّة للمجتمع الإسلامي ١٥٦

١ ـ الانسان والاجتماع ١٥٩
٢ ـ الانسان ونحوه في اجتماعه ١٥٩
٣ ـ الإسلام وعنايته بالاجتماع ١٦١
٤ ـ اعتبار الإسلام رابطة الفرد والمجتمع ١٦٢
٥ ـ هل تقبل سنّة الإسلام الاجتماعية الاجراء والبقاء؟ ١٦٤
الإسلام والديمقراطية ١٦٧
٦ ـ بماذا يتكون ويعيش الاجتماع الإسلامي؟ ١٧٣
٧ ـ منطقان: منطق التعقل ومنطق الإحساس ١٧٧
٨ ـ ما معنى ابتغاء الأجر عند الله والأعراض عن غيره؟ ١٧٩
٩ ـ ما معنىٰ الحرية في الإسلام؟ ١٨٠
١٠ ـ ما هو الطريق إلىٰ التحول والتكامل في المجتمع الإسلامي؟ ١٨٢
١١ ـ هل الإسلام بشريعته يفي بإسعاد هذه الحياة الحاضرة؟ ١٨٤
١٢ ـ من الذي يتقلّد ولاية المجتمع في الإسلام وما سيرته؟ ١٨٦
١٣ ـ ثغر المملكة الاسلامية هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعية أو الاصطلاحية ١٨٩
١٤ ـ الإسلام إجتماعي بجميع شؤونه ١٩٠
١٥ ـ الدين الحق هو الغالب علىٰ الدنيا في نهاية المطاف والعاقبة للتقوىٰ ١٩٥

الخلاصة ١٩٨

فهرس الآيات ٢٠٠

المصادر المعتمدة ٢١٢

الإهـداء

إلى الروح التي بلغت ذرى الحقائق القرآنية

وإلى فيلسوفنا العملاق ومفسرنا الكبير

السيد محمد حسين الطباطبائي

أهدي هذا الجهد المتواضع

محمود الجياشي

شكر و تقدير

لا يسعني في مستهل هذه الرسالة إلّا أن أتقدم بالشكر الجزيل وبالغ الإمتنان والتقدير إلى قسم الدراسات العليا في جامعة آل البيت عليهم السلام العالمية لجهودهم المتواصلة والكبيرة وقبولهم لهذه الدراسة بعنوان رسالة ماجستير، كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر أيضاً إلى الأستاذ المشرف جناب الحاج الدكتور عبدالجبار الرفاعي حفظه الله والأُستاذ المساعد سماحة السيد علي المرسوي حفظه الله تقديراً لجهودهما الكبيرة في إتمام هذا العمل بجميع مراحله، داعياً الباري سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع لمرضاته إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم أنبيائه محمد وآله الهداة الميامين..

قبل أكثر من أربعة عقود كتب المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ) العبارة التالية مستفتحاً بها كتابه المشهور «فلسفتنا»:

«مشكلة العالم التي تملأ فكر الأنسانية اليوم، وتمس واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعي التي تتلخص في محاولة إعطاء أصدق إجابة عن السؤال الآتي:

ما هو النظام الذي يصلح للانسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعية؟»[1].

وبعد مضي أكثر من أربعين عاماً على هذا الكلام ما زالت المشكلة هي المشكلة، وإن كانت وقتذاك تمس واقع الانسانية بالصميم فهي الآن تمسّه في صميم الصميم! فقد استفحل الداء على الدواء وأعيا الداء الطبيب!

كذلك يبقى السؤال هو السؤال، ما هو النظام الذي يصلح للانسانية وتسعد به في حياتها؟ إلاّ إنّا ما زلنا لا نبحث عن «أصدق» إجابة فقط، بل نبحث عن «أصدق وأسرع» إجابة أيضاً!

لكن لماذا أصبحت هذه المشكلة تملأ فكر الانسانية؟ أليس ثمة مشاكل أخرى ينبغي أن تأخذ محلّها في الفكر الانساني؟

ينبغي أولاً أن نشخص حقيقة المشكلة وجذورها التي تنتمي إليها، فهذه **«المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تأريخ البشرية، وقد واجهها الانسان منذ نشأت في واقعه الحياة الإجتماعية، وانبثقت الإنسانية الجماعية تتمثل في عدد أفراد تجمعهم علاقات وروابط مشتركة، فإن هذه العلاقات التي تكوّنت تحقيقاً لمتطلبات الفطرة والطبيعة في حاجة بطبيعة الحال إلى توجيه وتنظيم، وعلى مدى انسجام هذا التنظيم مع الواقع الإنساني ومصالحه يتوقف إستقرار**

---

(١) الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دراسة موضوعية في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفية وخاصة الفلسفة الاسلامية والمادية الديالكتيكية، دار الكتاب الإسلامي، ايران ١٩٨١م، ص ١١، ط ١٠.

المجتمع وسعادته».[١]

من جهته يقرر العلاّمة الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) أن المجتمع الإنساني لا يتم انعقاده ولا يعمّر إلاّ بأصول علمية وقوانين إجتماعية يحترمها الكل، وحافظ يحفظها من الضيعة ويجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة.[٢]

على ضوء ذلك نستنتج أنَّ الإنسانية لا ينبغي لها أن تطمع بالألتذاذ بحقيقة إنسانيتها من دون وجود مجتمع صالح تحكمه قوانين صالحة وأحكام عادلة، ومن ثمة فقد ملأت هذه المشكلة فكر الانسانية ولم تدع مجالاً يلحظ للمشاكل الأخرى.

فهّم الانسانية الوحيد هو تركيب أجزاء الصورة الإجتماعية التي ينبغي لها أن تؤطّر هذا العالم بكل تفاصيله، وحيث إنَّ صور الحياة الإجتماعية تختلف باختلاف الأصول الإعتقادية في حقيقة العالم والإنسان الذي هو جزء من أجزائه،[٣] فقد اختلفت ـ تبعاً لإختلاف الأفكار في حقيقة العالم والإنسان ـ أشكال الصور الإجتماعية التي حاول الكائن البشري أن يرسمها وينسّق أجزاءها المعقّدة وصولاً إلى صورة زاهية تتلاءم مع الهيئة الرائعة التي خلق عليها هذا العالم.

فثمة علاقة وطيدة بين الفكر والحياة، بل نستطيع القول من دون تردد أنَّ الفكر هو الأرض التي تنبت عليها شجرة الحياة وتغرس فيه جذورها، وهو الماء الذي ترتوي منه أغصان هذه الشجرة وتستبتي به وجودها.

فالحياة القيمة ـ بأي سنّة من السنن أخذ الإنسان وفي أيّ طريق من الطرق المسلوكة وغير المسلوكة سلك الانسان ـ ترتبط بالفكر القيّم وتبتني عليه، وبقدر حظّها منه يكون حظّها من الاستقامة.[٤]

وتبعاً للأختلاف الفكري الذي يطبع الحياة الإنسانية **«فقد دفعت هذه المشكلة بالإنسانية في ميادينها الفكرية والسياسية إلى خوض جهاد طويل، وكفاح حافل بمختلف ألوان الصراع، وبشتى مذاهب العقل البشري التي ترمي إلى إقامة البناء الإجتماعي وهندسته، ورسم خططه ووضع ركائزه، وكان جهاداً مرهقاً يضج بالمآسي والمظالم، ويزخر بالضحكات والدموع، وتقترن فيه السعادة مع الشقاء، كل ذلك لماكان يتمثل في تلك الألوان الأجتماعية من مظاهر الشذوذ والانحراف عن الوضع الاجتماعي الصحيح، ولولا ومضات شعّت في لحظات من تأريخ هذا الكوكب، لكان المجتمع الإنساني يعيش في**

---

(١) فلسفتنا: ص ١١، مصدر سابق.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت ١٤٠٢ هـ) الميزان في تفسير القرآن ج ١٦ ص ١٩٧، منشورارت مؤسسة الأعلمي، ط ٢، ٢٠٠٢م.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ج ١٦ ص ١٩٧.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ج ٥ ص ٢٥٩.

مأساة مستمرة وسبح دائم في الإمواج الزاخرة»[١].

في خضم هذا الصراع الفكري الطويل وبين الأيديولوجيات المختلفة التي تزخر بها ساحة الفكر البشري، يأتي الدين الإلهي ـ الذي ينتمي إليه كل خير مرجوّ في هذه الدنيا[٢] ـ ليقول كلمته الفصل في هذا المجال. إلاّ إنا يجب أن نضع نصب أعيننا أنَّ الدين الإلهي يستند في بنائه الشامخ و حضوره الواسع في الساحة الإنسانية على أنه المنقذ الوحيد الذي يستطيع أن يقود الإنسانية بكافة أجيالها وينتشلها من واقعها المظلم والمؤلم إلى حيث السعادة الحقيقية التي ينشدها الوجود الإنساني والوصول بالسفينة إلى شاطىء السلام والطمأنينة الأبدية، والدين يرتكز في هذه الحقيقة على حقيقة أخرى تتمثل في قصور العقل الإنساني ومحدودية إدراكاته للظفر بمعالم الطريق الذي يسوقه إلى نيل السعادة المذكورة وإقامة العدل والقسط في العالم، وهذه ـ باختصار ـ هي فلسفة الوحي وظاهرة النبوة في الحياة البشرية.

على ضوء معطيات القصور الذي يكتنف إدراكات العقل البشري نفهم أنَّ النظام العادل بالمعنى الحقيقي للعدالة ليس في وسع الإنسانية الظفر به أو العثور عليه من دون الإستعانة بيد العون الإلهي والشرائع السماوية وبيانات الوحي المقدسة.

قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.[٣]

وقال: ﴿علّم الانسان ما لم يعلم﴾.[٤]

من هنا دأبَ المفكرون والمحققون المسلمون إلى الظفر بمعالم النظرية الإجتماعية التي يتبناها الدين الإسلامي بوصفه ديناً خاتماً لرسالات السماء ولديه القدرة على قيادة الحياة الإنسانية على أكمل وجه إلى يوم القيامة.

«فكان لابد للإسلام أن يقول كلمته في معترك هذا الصراع المرير، وكان لابد أن تكون الكلمة قوية عميقة، صريحة واضحة، كاملة شاملة، للكون والحياة والإنسان، والمجتمع والدولة والنظام، ليتاح للأمة أن تعلن كلمة «الله» في المعترك وتنادي بها،

---

(١) فلسفتنا: ص ١٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ١٥٤.

(٣) البقرة: ١٥١.

(٤) العلق: ٥.

وتدعو العالم إليها، كما فعلت في فجر تأريخها العظيم».[١]

وفي ظل الإتجاهات الفكرية الحديثة والمناهج المعرفية التي بات يطرحها الفكر الإنساني اليوم ـ خصوصاً في أبعاد المعرفة الدينية ـ سوف تتخذ المشكلة الإجتماعية وماهية النظام الإجتماعي منحىً آخر من التفكير وعمقاً أكبرَ مماكانت عليه في السنين الماضية، الأمر الذي ينتج بالضرورة انفتاح باب المسؤولية الكبرىٰ أمام من بيده أزمة المعرفة الدينية ومقاليد السلطة الفكرية في أوساطنا، خصوصاً وأنَّ الأطروحات الحديثة المذكورة بدأت وبشكل كبير تأخذ مكانها بين أبحاث علم الكلام الذي يتبنىٰ الإستدلال علىٰ أصول الدين والشريعة، تلك الأطروحات التي انبعثت في أهم الموضوعات التي يتناولها الدين ورسالات السماء.

وللوقوف علىٰ عمق المشكلة ومدىٰ أهميتها نشير هنا ـ إجمالاً ـ إلىٰ أهم العناوين المطروحة في دائرة المعرفة الدينية وعلم الكلام الجديد.[٢]

١ ـ **النطاق الديني**: هل الدين محدود في دائرة الفرديات والأخلاقيات أم أنه يمتد ليشمل النواحي السياسية والإقتصادية وحتىٰ الطبية وأمثالها؟ وما هي تأثيرات الجواب هنا علىٰ الفهم الديني ككل؟ وهنا يقع في الحقيقة ملتقىٰ مجموعة من النظريات أبرزها نظرية «إنتظارات وتوقّعات البشر من الدين» كما تدرس هنا بعمق نظرية شمول الدين لكلّ وقائع الحياة، وشكل هذا الشمول؟

٢ ـ **التجربة الدينية**: ما هي حقيقة المشاعر والأحاسيس الدينية وما هي عناصرها وميزاتها وهل هناك فرق بين التجربة الدينية والأخلاقية؟ ما هو ميزان ضبط صدقية التجربة الدينية؟

٣ ـ **عقلانية الدين**: هل إثبات القضايا الدينية يكون بشكل عقلاني أو شهودي؟ وتقرأ هنا المدارس الروحية والعرفانية لدىٰ الأديان كافة أيضاً... الرابطة بين الدين والعقلانية؟ التعقّل والتعبّد في الدين ومساحاتهما وعلاقتهما؟

٤ ـ **معنىٰ وحقيقة الدين**: ما هو تعريف الدين؟ ما هو الفاصل بين الديني وغير الديني؟

٥ ـ **الجوهر والعرض في الدين**: ما هو ذلك الذي يمثّل العنصر الذاتي في الدين وما هو ذاك الذي يمثل العنصر العرضي؟ كيف نرتّب سلسلة الدينيّات من حيث الأهمية والرتبة؟ الأخلاق... القانون... العقيدة؟

٦ ـ **القاسم المشترك الديني**: مميزات وقواسم الأديان والمذاهب؟ ما هي الحدود الواضحة والشفافة بينها؟

---

(١) فلسفتنا: ص ٦.

(٢) جدير بالإلتفات هنا إنّا في مقام نقل هذه العناوين فقط لا تبنّي موضوعاتها أو أبعادها التي تؤول إليها.

ما هي المقومات الحقيقية ـ أخلاقياً ومعرفياً وميدانياً ـ للحوار الديني والمذهبي؟ أين تكمن مظاهر من قبيل التكفير واللعن والسباب من هذه القضية؟

٧ ـ **مناهج المعرفة الدينية**: هل منهج المعرفة في الدين هو عقلي تركيبي، تفكيكي، نقلي تجريبي، سلوكي، شهودي؟ ما هي حدود كل منهج ونطاقه؟

٨ ـ **الدور الديني**: ما هو الأثر الذي يتركه الدين في حياة الفرد والجماعة؟ هل هو أثر نفسي، اجتماعي، سياسي، أو مجموع ذلك وغيره، ما هو دور الدين في الصنع والفعل الحضاري؟ تأثيرات الدين في صنع القرارات السياسية، هنا تدرس مسائل علم الإجتماع الديني وعلم النفس الديني وغيرهما من العلوم.

٩ ـ **المجتمع الديني**: ما هي خصائص ومقومات المجتمع الديني؟

العلاقة بين المجتمع الديني والمجتمع المدني؟ ما هي بنية الإجتماع الديني؟ الطبقة العشائرية والقبلية في المجتمع الديني؟

١٠ ـ **الثبات والتحول الديني**: مساحات الثابت والمتحوّل في الدين؟

١١ ـ **الدين والعلم**: هذه أهم مسألة في الكلام الجديد وفق نظرة بعض الباحثين،[١] إذ يتساءل هنا هل يجب وضع المفاهيم الدينية كخط أحمر ونتائج نهائية أمام العلم لا يسمح له بتجاوزها أم نمنح العلم حق الإستقلال؟

١٢ ـ **الدين والأخلاق**: ما هي النظرية الأخلاقية الدينية؟ هل بالإمكان تصور عالم اخلاقي بدون دين؟ نسبية الأخلاق وتأثيرها على الأخلاق الدينية؟ العلاقة بين الأخلاق والقانون؟

١٣ ـ **إنسانيّة الدين**: أين يقف موضوع حقوق الانسان من الدين؟ التمايز الديني والعصبية الدينية؟ الدين ومفاهيم القومية والعرقية؟ مفهوم الأخوّة والمساواة في الدين، قضية الأقليّات؟ موضوع المرأة وإشكاليته المعقدة. حقوق الطفل، حقوق العامل؟

١٤ ـ **آفات الدين**: العصبية ـ التطرّف الديني ـ التفردية ـ الفوقية الدينية ـ الشخصانية ـ الحروب ـ الكبت الجنسي والفكري ـ الإرهاب بكل أشكاله ـ العنف والخشونة ـ وغيرها ـ وتحليلها تحليلاً علمياً مع الإجابات الوافية، وغير ذلك من المسائل التي لا مجال لذكرها هنا. والتي بحثها علم الكلام الجديد فعلاً أو لم يبحثها لحد الآن.[٢]

---

(١) محمد مجتهد شبستري، مدخل إلى علم الكلام الجديد، ص ٥١ ـ ٥٨.

(٢) راجع علم الكلام المعاصر، حيدر حب الله ص ١٤٦ ـ ٢٥٣. الناشر المركز العالمي للعلوم الإسلامية مهرجان الشيخ الطوسي. ١٤٢٣ هـ إيران.

على ضوء هذا الطيف الواسع من الموضوعات الفكرية التي تقع في صميم محيط المعرفة الدينية ـ أو الرؤية الصحيحة لحقيقة العالم وتحديد الدور الذي يلعبه الإنسان في هذا الوجود بالإستناد إلى الترجمة الأمينة للمقولات التي يتبناها الدين ورسالات السماء في مجال الأعتقادات والأخلاق الفاضلة وعموم المسائل الفردية والإجتماعية ـ تكمن أهمية الأمساك بخيوط النسيج المتواشج الذي يؤلف الأطروحة الإجتماعية في الدين الإسلامي والظفر بالمعالم الرئيسية التي تتضح من خلالها صورة المجتمع الإنساني في ضوء معطيات الدين الإلهي القويم.

من هنا تأتي أهمية موضوع هذه الرسالة التي تتكفل ببيان الأسس العامة للمجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي قدس سره باعتباره أحد أهم فلاسفة الإسلام ومفكريهم الذين ساهمت عقولهم في التأسيس لكثير من مقولات الفكر الإسلامي عموماً والنظرية الإجتماعية خصوصاً.

في هذا السياق ـ وإحساساً بالمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق مفكري الإسلام ـ يأتي المشروع الفكري الضخم الذي تبنّاه المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ) قبل أكثر من أربعين عاماً مضت.

فقد كتب في الصفحات الأولى من «فلسفتنا» الذي كان يمثل الخطوة الأولى في هذا المشروع: **«وليس هذا الكتاب إلاّ جزءاً من تلك الكلمة ـ أي كلمة الإسلام التي ينبغي أن تقال في معترك الصراع الفكري ـ عولجت فيه مشكلة الكون كما يجب أن تعالج في ضوء الإسلام، وتتلوه الأجزاء الأخرى التي يستكمل فيها الإسلام علاجه الرائع لمختلف مشاكل الكون والحياة»**[1].

وفعلاً، فلم تمض إلاّ سنوات معدودة حتى رأى الفكر الإسلامي ولادة الخطوة الثانية في هذا المشروع والتي تمثلت في صدور أضخم بحث علمي تناول كشف الأسس العامة للنظرية الإقتصادية التي يتبناها الإسلام، وذلك هو كتاب «إقتصادنا» الذي ما زال إلى الآن يعد المحاولة الرئيسية في مجال الاقتصاد الإسلامي بالرغم من دخول الإنسانية في ألفيتها الثالثة.

أما الخطوة الثالثة والمهمة فكان من المقرر لها أن تتناول بيان ماهية النظام الاجتماعي في الإسلام، وقد جاء الوعد حول إنجاز هذه الخطوة العملاقة في آخر صفحة من «فلسفتنا» والتي قال فيها: **«وسوف ندرس في «مجتمعنا» طبيعة هذا التكيّف وحدوده في ضوء مفاهيم الإسلام، عن المجتمع والدولة لأنه من القضايا الرئيسية في دراسة المجتمع**

---

(١) فلسفتنا: ص ١٢.

وتحليله، وفي تلك الدراسة سنستوفي بتفصيل كل النواحي التي اختصرنا الحديث عنها في بحث الإدراك هذا».[١]

مع شديد الأسف لم يكن الفكر الإنساني محظوظاً للحصول على هذه الخطوة التي ترسم له ـ لو تمّت ـ معالم الصورة المشرقة للمجتمع الإنساني في نظر الدين الإسلامي، فقد التحق مفكرنا الكبير بالرفيق الأعلى واختار السعادة الأبدية على هذه الدنيا الفانية ليطيب له العيش في ثنايا المجتمع الالهي في العالم الآخر، ذلك العالم الذي ليس فيه إلاّ الحياة والحياة فقط، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فقد استشهد الصدر ليؤكد بشهادته والطريقة التي تمّت بها أنَّ الإنسانية لا يكتب لها العيش الهانيء إلا مع إنمحاء جميع ألوان الظلم والانحراف على وجه المعمورة.

استشهد تاركاً خلفه ـ إضافة إلى الجرح العميق في قلوب المؤمنين ـ المئات من الاسئلة والقضايا المقفلة بعلامات الإستفهام حول الأبعاد الحقيقية لماهية النظام الاجتماعي في الإسلام.

وفي الوقت الذي كان فيه الصدر يقود الصراع الفكري من النجف الاشرف كان الفيلسوف السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) يحمل لواء البحث الفلسفي ويمسك بزمام العلوم العقلية والقضايا المعرفية في حوزة قم المقدسة.

وقد استطاع هذا المفكر العملاق أن يؤسس لكثير من قضايا المعرفة والإدراك البشري ويوضح معالم المنظومة المعرفية التي يقوم عليها البناء الفكري عند الإنسانية، كما سيمرّ علينا من خلال التعرض لمختصر حياته العلمية والفكرية، وكذلك من خلال أبحاث هذا الكتاب.

كان الطباطبائي حينذاك مشغولاً ـ إلى جانب بحثه الفلسفي ـ بتصنيف موسوعته العظيمة «تفسير الميزان» التي استغرق تأليفها ما يقارب العقدين من عمره الشريف فقد صدر الجزء الاول منها عام ١٩٥٦م، وفرغ من كتابة الجزء الأخير منها عام ١٩٧٢م.

ونتيجة للظروف السياسية وصراع التيارات الفكرية القائم آنذاك فقد تعرَّض الطباطبائي لمناقشة أهم القضايا الفكرية المطروحة وقتئذ من خلال البحث القرآني في التفسير، وكان من أهم تلك القضايا **المشكلة الإجتماعية في المجتمع الإنساني**، فقد ناقش مختلف النظريات التي تبنّت الاطروحات الإجتماعية في كيفية حكم المجتمع وإدارة حياته، إلاّ أنَّ هذه المناقشات والبحوث القيّمة جاءت ضمن تفسيره للآيات الكريمة ولم تأخذ طابع الكتب المستقلة في معالجة القضية الإجتماعية وبيان أسس المجتمع الديني بالرغم من أنها أسست لكثير

---

(١) فلسفتنا ص ٤٠٠.

من الأركان التي تعتمد عليها النظرية الاجتماعية في الإسلام، مضافاً إلى أنَّ عنوان تفسير القرآن قد ألقىٰ بظلاله علىٰ كثير من تلك البحوث، فالذي يسمع تفسير الميزان يتصّور المعنىٰ الحرفي لكلمة «تفسير» وهو بيان معاني الآيات القرآنية والوقوف علىٰ مداليلها بالطريقة التقليدية عند المفسرين، ولا يأتي في ذهنه أن الطباطبائي قد تحدّث في تفسيره عن **الديمقراطية والشيوعية وحكم الأكثرية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة وحرية الفكر والعقيدة، وحكم الإرهاب في الدين، وصورة العلاقات الدولية في نظر الدين الإسلامي، بل تطرق في بعض الأبحاث إلى بيان حقيقة العلاقة بين الحضارات والثقافات التي يزخر بها التأريخ البشري.**

فقد دافع الطباطبائي من خلال أبحاث مطولة إنتشرت في ثنايا المجلدات العشرين التي يتألف منها تفسير الميزان، عن مبادىء المجتمع الديني وطريقة التفكير التي يؤمن بها هذا المجتمع إضافة إلى بيان الأسس الأخلاقية وخواص العلاقات الفردية والإجتماعية التي ينبغي أن تدير الإجتماع الإنساني من وجهة نظر الدين.

يتميّز الطباطبائي في هذه الأبحاث ـ كما سيتضح جلّياً عند قرائتها ـ بدرجة عالية من الموضوعية والإنصاف العلمي قلّ نظيرها في الأبحاث التي حاولت أن تقف بوجه الغزو الثقافي والفكري الوافد على الشرق الإسلامي، ولعلّ أهم الميزات التي تستحق التأمل هنا هي أنَّ الباحث يجد أنّ الطباطبائي يكرّس قدراته الفكرية في الدفاع عن الإسلام لا عن المسلمين ويفصل بوضوح بين الإسلام والمسلمين، وبالتالي يقرر أنّ فشل المسلمين في كثير من مجالات الحياة الإجتماعية والفردية لا يمكن أن يحمل علىٰ الإسلام كدين إلهي.

من هنا يحسن بنا التطرق ـ ولو إجمالاً ـ إلى مجموعة من النقاط التي تميّز بها البحث الإجتماعي عند الطباطبائي لكي يقف الباحث علىٰ أهمية الأبحاث التي تعرض لها في تفسير الميزان، والتي يتكفل الكتاب الذي بين يديك جمعها وإخراجها بشكل مستقل.

١ ـ **الكمال الروحي والجسمي:** يؤمن الطباطبائي بأنَّ الدين اعتبر في تشريعه حقيقة الوجود الإنساني وبنىٰ أساسه علىٰ الكمال الروحي والجسمي معاً، وابتغىٰ السعادة المادية والمعنوية جميعاً، وعلىٰ هذا يجب أن يفرض فرد ديني أو إجتماع ديني جامع للتربية الدينية والحياة المادية التي سمحت بها دنيا اليوم.[1]

٢ ـ **إتباع الحقّ:** وأما في قضية اتباع الحق أينماكان والدعوة إلى نبذ التعصب والتطرف الديني ـ التي هي من أهم القضايا المطروحة اليوم علىٰ بساط البحث المعرفي بين الأمم ـ نرىٰ الطباطبائي يقرر وبأسلوب رائع بأنَّ:

«الحق حقّ أين ماكان وكيفما أصيب وعن أيّ محل أخذ، ولا يؤثر فيه إيمان حامله وكفره، ولا تقواه وفسقه، والأعراض عن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ١٣٦.

الحق بغضاً لحامله ليس إلا تعلّقاً بعصبية الجاهلية التي ذمّها الله سبحانه وذمّ أهلها في كتابه العزيز وبلسان رسله».[١]

في السياق ذاته يفرّق الطباطبائي بين نوعين من الإدراك وطريقة الفهم عند الإنسان وذلك بسبب الأخلاق النفسية والصفات الباطنة والملكات الروحية الفاضلة والرديئة، فإنّ تلك الأمور ذات تأثير كبير في العلوم والمعارف الإنسانية من حيث الإستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن، وعلىٰ ضوء معطيات هذه الحقيقة لا يكون إدراك «**الانسان المنصف وحكمه الذهني كأدراك الشموس**[٢] **المتعسف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف كنيل العجول والمتعصب وصاحب الهوىٰ والهمجي الذي يتبع كل ناعق، والغويّ الذي لا يدري أين يريد؟ ولا أنّىٰ يراد به...**».[٣]

٣ ـ **حرية الفكر والعقيدة**: في هذا المجال نجد الطباطبائي يصرح بهذه الحقيقة علىٰ خلاف ما ينسب إلى الإسلام من التعصب أو التطرف الديني والإكراه على اعتناق عقيدة خاصة بالسيف أو السوط أو القمع الفكري فيقول: «**ومنه يظهر أن هذا الدين كما يعتمد بأساسه علىٰ التحفظ علىٰ معارفه الخاصة الإلهية، كذلك يسمح للناس بالحرية التامة في الفكر، ويرجع محصله إلىٰ أنّ من الواجب علىٰ المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالإجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه أو معارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به! وإنّما يجب علىٰ صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده علىٰ كتاب الله بالتدبّر في بحث إجتماعي... والحرية في الفكر والعقيدة علىٰ نحو الذي بيّناه غير الدعوة إلىٰ هذا النظر وإشاعته بين الناس قبل العرض فإنه مفضٍ إلى الإختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم**»[٤].

وأما موقف الدين الإسلامي من تحميل الإعتقاد علىٰ النفوس بالقوّة والتعصّب وهجر التفكر العقلي فيقول بصدده:

«**هذا أحسن ما يمكن أن يدبّر به أمر المجتمع في فتح باب الإرتقاء الفكري علىٰ وجهه مع الحفظ علىٰ حياته الشخصية، وأما تحميل الإعتقاد علىٰ النفوس والختم علىٰ القلوب وإماتة غريزة الفكرة في الإنسان عنوة وقهراً والتوسل في ذلك بالسوط أو السيف أو بالتكفير والهجرة وترك المخالطة، فحاشا ساحة الحق والدين القويم أن يرضىٰ به أو يشرع ما يؤيده، وإنّما هو خصيصة نصرانية، وقد امتلأ تأريخ الكنيسة في أعمالها وتحكماتها في هذا الباب ـ وخاصة فيما بين القرن الخامس وبين القرن السادس عشر الميلاديين ـ**». إلا إنّ الطباطبائي يعود ويبيّن حال المسلمين الفعلي من حرية الفكر والعقيدة وكم هو

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٥ ص ٤٦٤.

(٢) الشّموس: تعني الرجل صعب الخلق، مأخوذة من الفرس الشموس الذي يمنع ظهره أنْ يركب عليه أحد.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ١٣٥.

الفرق بينهم ـ أي المسلمين ـ وبين الإسلام في هذا المجال، فيقول:

«ولكن مع الأسف إنّا معاشر المسلمين سلبنا هذه النعمة وما لزمها (الإجتماع الفكري وحرية العقيدة) كما سلبنا كثيراً من النعم العظام التي كان الله سبحانه أنعم علينا بها لما فرطنا في جنب الله ﴿وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم﴾[١] فحكمت فينا سيرة الكنيسة، واستتبع ذلك أن تفرّقت القلوب وظهر الفتور وتشتت المذاهب والمسالك يغفر الله لنا ويوفقنا لمرضاته ويهدينا إلى صراطه المستقيم».[٢]

ويكتب في مضوع آخر: **«إنَّ التأريخ أصدق شاهد علىٰ الأقتباسات التي عملتها الأمم المسيحية بعد الحروب الصليبية، فاقتبسوا مهمات النكات من القوانين العامة الإسلامية فتقلّدوها وتقدموا بها، والحال أنَّ المسلمين اتخذوها وراءهم ظهرياً، فتأخر هؤلاء وتقدم أولئك، والكلام طويل ذيل».[٣]**

٤ ـ الاشكالات علىٰ المسلمين لاعلىٰ الإسلام: ذكرنا أنَّ الطباطبائي يكرّس قدراته الفكرية الضخمة في الدفاع عن الإسلام لا عن المسلمين، ومن أمثلة ذلك ما ذكره حول الإشكالات التي وجّهها الغربيون علىٰ مسألة تعدد الزوجات في الإسلام وما تستتبعه من مشاكل إجتماعية، فقد كتب في هذا الصدد بعد نقل هذه الإشكالات:

«هذا محصّل ما ذكروه، وهو حقّ، غير إنه إنّما يرد علىٰ المسلمين لا علىٰ الإسلام وتعاليمه، ومتىٰ عمل المسلمون بحقيقة ما ألقته إليهم تعاليم الإسلام حتىٰ يؤخذ الإسلام بالمفاسد التي أعقبتها أعمالهم؟! وقد فقدوا منذ قرون الحكومة الصالحة التي تربّي الناس بالتعاليم الدينية الشريفة بل كان أسبق الناس إلى هتك الأستار التي أسدلها الدين، ونقض قوانينه وإبطال حدوده هي طبقة الحكّام والولاة علىٰ المسلمين، والناس علىٰ دين ملوكهم، ولو اشتغلنا بقصّ بعض السير الجارية في بيوت الملوك والفضائح التي كان يأتي بها ملوك الإسلام وولاته منذ أن تبدلت الحكومة الدينية بالملك والسلطنة المستبدة لجاء بحياله تأليفاً مستقلاً».[٤]

٥ ـ لا إمتيازات للحاكم: في ضوء معطيات التربية الإجتماعية التي ينادي بها القرآن وتعاليم الإسلام يقرر الطباطبائي أنَّ المسؤولية الدنيوية لا امتيازات فيها في نظر الإسلام، ذلك أنَّ المقياس الوحيد الذي يضعه الإسلام محوراً للتقييم والتفاضل هو التقوىٰ والتقوىٰ فقط، **«والتقوىٰ حسابها على الله ليس لأحد أن يستعلي بها علىٰ أحد، فلا**

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) نفس المصدر: ص ١٣٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ١٥٤.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ١٩٧.

فخر لأحد على أحد بشيء، لأنه إن كان أمراً دنيوياً فلا مزيّة لأمر دنيوي ولا قدر إلا للدين، وإن كان أمراً أخروياً فأمره إلى الله سبحانه، وعلى الجملة لا يبقى للإنسان المتلبس بهذه النعمة أعني «الملك» في نظر رجل مسلم إلاّ تحمل الجهد ومشقّة التقلّد والأعباء، نعم له عند ربّه عظيم الأجر إن لازم صراط العدل والتقوى».[١]

٦ ـ أساس التربية الإجتماعية الصالحة: يركّز الطباطبائي في هذا الباب على أن الشرط الأساسي والمحور الذي تدور عليه رحى التربية القويمة المنتجة للمجتمع الصالح هو كون القائم على تربية الناس سبّاقاً إلى العمل بما يقوله وأن يكون أول من يطبّق ذلك في ساحة الواقع العملي. **«فمن شرائط التربية الصالحة أن يكون المعلّم المربّي نفسه متصفاً بما يصفه للمتعلم، فمن المحال العادي أن يربّي المربّي الجبان شجاعاً باسلاً، أو يتخرّج عالم حر في آرائه وأنظاره من مدرسة التعصّب واللجاج».**[٢]

في السياق ذاته يعزو الطباطبائي الحالة المزرية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية في مجال التربية والتعليم إلى السبب المذكور آنفاً وهو عدم وجود المربّي المتّصف بما يصفه للناس، وفي هذا الصدد يضغط الطباطبائي بأصبعه على الجرح العميق الذي أعيا أنمه الشديد بدن الأمة الإسلامية فيقول: **«ولهذه الحقيقة ـ وهي عدم مطابقة العمل للعلم ـ مصاديق كثيرة وأمثلة غير محصاة في سلوكنا معاشر الشرقيين والإسلاميين خاصة في التعليم والتربية في معاهدنا الرسمية وغير الرسمية فلا يكاد تدبير ينفع ولا سعي ينجح».**[٣]

٧ ـ **موقف الإسلام من الإرهاب**: وهو أيضاً من المجالات المهمة التي ابتلي بها واقع الإسلام في العصر الراهن، لذا فمن الضروري أن تبيّن معالم الصورة الواقعية لموقف الدين الإسلامي من الإرهاب الذي يطال البنية الإنسانية في العالم اليوم، وفي هذا الصدد يقول الطباطبائي: **«الإسلام يحرّم في الحرب والسلم التخريب والإحراق والسمّ وقطع الماء عن الأعداء، كما يحرّم قتل النساء والأطفال وقتل الأسرى، ويوصي بالرفق بهم والإحسان إليهم مهما كانوا من العداء والبغضاء للمسلمين، ويحرّم الإغتيال في الحرب والسلم، ويحرّم قتل الشيوخ والعجزة ومن لم يبدأ بالحرب ويحرّم القتل على الظنة والتهمة، والعقاب قبل إرتكاب الجريمة إلى امثال ذلك من الأعمال التي يأباها الشرف والمروءة والتي تنبعث من الخسّة والقسوة والدناءة والوحشية».**[٤]

٨ ـ **التفريق بين تحوّل الأحكام وتبدلها وبين تكاملها وارتقائها**: وهو أيضاً من أهم الموضوعات المطروحة في مسألة ثبات القوانين الأخلاقية والأحكام الإجتماعية وعدم تبدلها بالنسبة إلى الزمان والمكان، ويختار

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٣ ص ١٧١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج ٦ ص ٢٥٨.

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٥٩.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ١٧٠.